التصورات النفسية: تشكلها واستحضارها من منظور تحليلي

بوصوفة عبد الوهاب

تحت تأطير أ. د. نادية شرادي

جامعة البليدة 2

ملخص:

فعل تصوّر هو وضع شيء أو موضوع غير موجود أمام الأعين أي استحضاره رغم غيابه الفعلي، إذا فالنقص والغياب هو عامل ضروري لحدوث التصور. أمَّا **فرويد** فيعرف التصور بأنه "العملية التي بواسطتها تتحول الحالة العضوية الأساسية التي تميز الغريزة إلى تعبير نفسي. تنقسم التصورات إلى قسمين: تصورات الكلمات تشتق من الكلمة وهو عبارة عن تصور شفوي (لفظي) أين تكون النوعية حسب فرويد صوتية، و تصورات الشيء الذي يشتق من الشيء ويكون مرئياً كما في الأحلام.

ينشأ التصور نتيجة انفصال الأنا عن الهو هذا ما يعرف عند التحليليين بالفردنة، وظهور العلاقة الموضوعية التي يربطها الطفل مع المحيط الذي يعيش فيه، كما يمر التصور بثلاث مراحل لكي يتشكل انطلاقا من الجسد إلى مرحلة بين الجسد والنفس إلى مرحلة النفس. هذا ما نحاول بلورته من خلال هذا المقال.

كلمات مفتاح : التصور، الفردنة، العلاقة بالموضوع.

Résumé:

Le verbe Représenter signifie : mettre un objet ou un sujet qui n'existe pas devant les yeux, c'est à dire l'évoquer malgré son absence réelle.

Donc le manque et l'absence est un facteur essentiel pour la représentation. Mais **Freud** définit la Représentation comme l'opération qui permet la transformation du statut organique essentiel qui caractérise l'instinct en expression psychologique. Les Représentations se divisent en deux catégories: représentation de mot c'est une

représentation qui est clivée à partir d'un mot c'est une représentation orale c'est à dire la qualité selon FREUD est vocale (phonétique). Représentation de chose qui est clivée d'un objet qui se voit réel comme dans les rêves.

La représentation provient de la séparation entre le moi et le ça c'est ce qui s'appelle chez les psychanalystes l'individuée, et l'apparition d'une relation objective que l'enfant connecte avec son entourage. La représentation passe par trois étapes pour sa construction, à partir du corps puis une étape entre le corps et le psychisme puis l'étape du psychisme. C'est ce que nous tenterons de développer tout au long du présent article.

Mots clés : Représentation, L'individuée, Relation objective

مقدمة:

موضوع هذا العمل هو التصور كعامل ما وراء النفسانية(Métapsychologique) والية وضعه في التجربة، حسب رأينا التصور يغطي كل عمل الجهاز النفسي ولاجتناب عدم الفهم اللغوي لجأنا لاستعمال المعاجم للبحث عن معنى كلمة التصور(Représentation) في الفلسفة، الأدب، علم النفس، معنى يكون الأقرب من التصور(Vorstellung) الذي وضعه فرويد(Freud) لذلك سنقوم بعرض مفهوم التصور لغويا و اصطلاحيا من خلال نظرية التحليل النفسي. وكذا نشأة التصور و مراحله أي كيف ننتقل من الجسم إلى النفس.

1- تحديد مفهوم التصور

يعرف ج. بيرجوري فعل التصور(représenter) حسب المعجم الصغير روبير (Le petit Robert): المذكور عند نيكوليدِ (Nicolaidis) بأنه "وضع أمام الأعين (Mettre devant les yeux)، و بذلك التصور هو أن نجعل من موضوع أو مفهوم ما غائب شيئا محسوسا عن طريق تحريضه على الظهور.

في هذا التعريف النقص والانعدام هو عامل ضروري للتصور، الصورة الذكروية التي تظهر في العقل بواسطة شيء آخر يشبهها أو ينتمي إليها أي بواسطة شيء للتعويض هذه الأثر الذكروي يكون مستثمر عاطفيا (NICOLAIDIS, 1984: 1).

أما حسب القاموس الموسوعي ألفا (Alpha) كلمة تصور تأخذ عدة معاني نحن سنتناول التعاريف الرئيسية المتعلقة بموضوعنا، أي كل ماله علاقة بالتصور بمعناه النفسي.

أولاً: كلمة التصور مشتقة من الفعل تصوَّر الذي يعني:

- التقديم من جديد: في هذا الإطار يمكن أن نقول أنَّ هذه الآلية تحدث في الواقع، حيث أنَّ الأمر يتعلق بإعادة إظهار للمرة الثانية، شخص أو شيء وُجد في الواقع وعُرف بواسطة الإدراك. إذن فهو عملية إعادة الإدراك.

- التثبيت في الذهن: تذكّر شيء ما أو شخص معين: في هذا الإطار الأمر يتعلق بعمل الذاكرة، أي التثبيت في الذهن للشيء أو للشخص المدرك في الواقع. وقدرة استحضاره مرة أخرى دون وجوده في الواقع. فهذا عمل إعادة التذكر.

بهذا التعريف يمكننا أن نتكلم عن عالمين مختلفين: العالم الخارجي و العالم الداخلي، فالتصور ناتج عن عمل تذكر يسمح بالانتقال من العالم الخارجي إلى العالم الداخلي، أي من الإدراك إلى إعادة التذكر.

-اللعب أو التمثيل أمام الملأ: في هذا الإطار التصور يوافق الأنشطة التي تحدث في العالم الخارجي.

- الترميز، حسب نفس القاموس فهو يعني تصور فعلي لفكرة مجردة، أي أنَّ الشيء لا يُقيَّمُ إلاَّ بما يُعبر عنه أو يرمي إليه.

- تمثيل شخص أو عدة أشخاص: في حالة تعيين مندوب يُمثِل شخص أو مجموعة أشخاص، مثلما هو الحال بالنسبة للنواب التشريعيين الذين يمثلون تقسيم إداري معين.

أيضاً، نجد كلمة "تصور الذات": في هذا الإطار الشخص يكون في نفس الوقت طرف في الآلية: أي أنه هو الذي يتصور وهو المُتصور، فهذا هو تصور الذات (مكيري، 2008: 55-56).

التصور إذا هو وضع شيء أو موضوع غير موجود أمام الأعين أي استحضاره رغم غيابه الفعلي إذا فالنقص والغياب هو عامل ضروري لحدوث التصور.

2- التصور من خلال نظرية التحليل النفسي:

مفهوم التصور أساسي بالنسبة للتحليل النفسي، إنه أحد الأوجه الأولى لوظيفة الجهاز النفسي، بل أول معرفة يتكون على إثرها هذا الجهاز.

ويعرَّف التصور في التحليل النفسي حسب "لابلانش وبونتاليس" (Laplanche et Pontalis) مفهوم تقليدي في الفلسفة وعلم النفس، ويُستعمل للدلالة "على ما نتصوره، ما يكوِّن المحتوى المحسوس لفعل التفكير، وخصوصا لاسترجاع إدراك سابق، يعارض فرويد(freud) ما بين التصور وبين العاطفة، فكل واحد منهما يلقى مصيرا مختلفا خلال العمليات النفسية"(لابلانش و بونتاليس، ترجمة مصطفى حجازي،2002: 180).

في نظرية التوظيف العقلي التصور يختلف عن العاطفة (L'affect) التي هي طاقة محسوبة مرتبطة بكل تصور وحيث المصدر يكون نزوياً في العمق و حسب بيرجوري (Bergeret) فإن التصور هو عبارة عن آثار ذكروية مستثمرة عاطفياً(BERGERET, 2012 : 49)**.**

أما فرويد (freud) فيعرف التصور "بأنه العملية التي بواسطتها تتحول الحالة العضوية الأساسية التي تميز الغريزة إلى تعبير نفسي.

ويشير التصور في أعمال لاحقة لفرويد إلى العناصر المادية الملاحظة التي تتثبت فيها الغريزة، في الوقت الذي ينقسم فيه الجهاز النفسي تحت تأثير الكبت إلى شعور وما قبل شعور واللاشعور. وهذا يعني أن عملية الكبت تحدث انطلاقا من التصورات، ومن التصورات تحدث أيضا عملية العلاج النفسي (DORON, PAROT, 2007: 627)**.**

يقول ر. بيرون(R. Perron) "يمكن أن نستنبط من كلمة (تصور) على الأقل ثلاث مفاهيم استعملت من قبل فرويد":

المفهوم الأول: وُضع تحت اسم (Vorstelung) الذي يعني "ما هو موضوع أمام، قبل" يتعلق الأمر هنا بالتقديم، في هذه الحالة يكون تقديما للمرة الثانية كما شُرح سابقا من طرف لابلانش و بونتاليس.

المفهوم الثاني: له اسم (Reprasentaz) ويعني "المندوب" أي الممثل. في هذه الحالة النزوة التي مصدرها الجسد تكلف التصور ليمثلها على ساحة النفسية. وهذا ما يعرف عند فرويد بـ (Représentant – Représentation) بهذا الشكل يكون التصوّر أحد ممثلي النزوة إضافة إلى العاطفة.

المفهوم الثالث: ويسمى (Idée) ويعني الفكرة، استعمل هذا المفهوم من طرف فرويد تنقسم إلى أفكار ظاهرة و أفكار كامنة أي تصورات الأشياء و تصورات الكلمات

من خلال هذا يتبين لنا أنّ مفهوم التصور في التحليل النفسي يأخذ نفس معناه في اللغة.

وهكذا يتبين لنا أن بيرون يميز بين معنيين:

المعنى(أ): يخص أمرالاستحضار الشعوري أو ما قبل الشعوري على الساحة النفسية لشيء أو شخصأو حدث ينتمي للعالم الخارجي، وبهذه الصورة فالتصور يمثل المحور الذي يفصل بين داخل أو خارج الجهاز النفسي وهذا المحور هو الذي يفصل بين ماهو هوام و ما هو إدراك.

المعنى (ب): يتعلق بأحد ممثلي النزوة على الساحة النفسية، الممثل الآخر هو "كم العاطفة". بهذا المعنى التصور يظهر على كل المحاور التي تظهر فيها النزوة، أي على مستوى الموقعية الأولى والثانية (PERRON, 1997: 1450).

3- تعريف بعض المفاهيم ذات الصلة بالتصورات:

***تصور الشيء وتصور الكلمة:** Représentation de chose, Représentation de mot

يستعمل فرويد هذه المصطلحات في نصوصه ما وراء النفسانية (Métapsychologique) كي يميز ما بين نوعين من "التصورات" -البصرية منها أساساً- والتي تشتق من الشيء، و– السمعية منها أساساً- والتي تشتق من الكلمة.

لهذا التمييز عند فرويد مرمى ما وراء نفساني، حيث يميز ارتباط تصور الشيء بتصور الكلمة المقابلة له نظام ما قبل الوعي- الوعي، خلافاً لنظام اللاوعي الذي لا يدرك سوى تصور الشيء (لابالانش وبونتاليس،ترجمة مصطفى حجازي، 2002: 181).

يعود أصل التمييز بين تصور الشيء وتصور الكلمة إلى أبحاث فرويد الشاب حول العِيّ (Aphasie).

تبرز فكرة تصور الشيء في مذهب فرويد في مرحلة مبكرة جداً جنباً إلى جنب مع مصطلح "الآثار الذكراوية" القريبة منها: والتي تحفظ في مختلف الأنظمة الذاكرية. أذ يصادف مصطلح تصور الموضوع (Objektvorstellung) في المقالة بعنوان: "حول مفهوم حالات العِيّ. دراسة نقدية عام (1891)، وأما في "تأويل الأحلام عام 1900" فنصادف مصطلح تصور الشيء(Dingvorstellung) ومن أوضح التعريفات التي أعطاها فرويد لهذه الفكرة ما يلي: "إن لم يتلخص تصور الشيء في توظيف ينصب على الصور الذاكرية المباشرة للشيء فهو يتلخص على الأقل في توظيف ينصب على الآثار الذاكرية الأكثر بعداً والمشتقة من تلك الصور"، يستدعي هذا التعريف ملاحظتين:

أولاً: يتم تمييز التصور في هذا المقام بشكل قاطع عن الأثر الذاكري : فهو يعيد توظيف وإحياء ذلك الأثر الذاكري الذي لا يعدو كونه بحد ذاته تسجيل للحدث.

ثانياً: لا يجب أخذ تصور الشيء، وكأنه شبيه عقلي لمجمل الشيء. إذ يكون هذا التصور حاضراً في مختلف الأنظمة أو مركبات الترابطات تبعاً لهذا أو ذاك من أوجه المخالفة.

وأما تصورات الكلمة فلقد قُدمت ضمن مفهوم يربط ما بين النطق والوعي بالظاهر. وهكذا نجد، انطلاقاً من "مشروع علم نفس علمي عام 1895" الفكرة القائلة بأن الصورة الذاكرية يمكنها اكتسابمؤشر النوعية" الخاص بالوعي، من خلال ارتباطها بصورة لفظية. تظل مثل هذه الفكرة ثابتة عند فرويد. إذ أنها أساسية في فهم العبور من العملية الأولية إلى العملية الثانوية، ومن وحدة الإدراك إلى وحدة التفكير.

ونجد عام 1915 في المقالة حول "اللاوعي" على الشكل التالي الذي يبرز قيمتها الموقعية: "فبينما يشمل التصور الواعي، تصور الشيء إضافة إلى تصور الكلمة المطابقة له، يقتصر التصور اللاواعي على تصور الشيء وحده" (لابالانش وبونتاليس، ترجمة مصطفى حجازي، 2002: 182).

إذاً تصور الكلمات (Représentation de mots) هو عبارة عن تصور شفوي (لفظي) أين تكون النوعية حسب فرويد صوتية وهي ضد تصور الأشياء الذي يكون مرئياً كما في الأحلام (BERGERET, 2012: 49).

التعارض بين تصور الأشياء وتصور الكلمات:

-تصور الأشياء مفتوحة وغير قابلة للعد (Indénombrable) أما **تصور الكلمات** فهو مغلق ومنتهي. هذا التعارض مذكور من قبل فرويد منذ 1891 في أعماله حول (l'aphasie)

-تصور الأشياء مسجل في عدة أجهزة و هو موضوع الكبت تصور الكلمات يقع عادة في جهاز واحد.

تصور الكلمات والأشياء ظاهر (Figure)أي اختلاف بين ما يظهر (تصور الكلمات و الأشياء) وبين ما يفتقد للظهور(Non Figure)، العاطفة (BERGERET, 2012 **:** 259).

***تصور-هدف:** (Représentation-but)

نحت فرويد هذا المصطلح لتبيان ما يوَّجه مجرى الأفكار: سواء الواعية منها، أم ما قبل الوعي أو اللاواعية: إذ توجد غاية لكل مستوى من هذه المستويات تقوم بتأمين ترابط ما بين الأفكار، لا يتحدد بشكل آلي فقط بل من خلال بعض التصورات المفضلة التي تمارس على بقية التصورات جذباً حقيقياً (لابالانش وبونتاليس، ترجمة مصطفى حجازي، 2002: 183).

يشير مصطلح التصور-الهدف، تبعاً لفرويد، إلى خضوع الترابطات لغائية معينة. تكون الغائية جلية في حالة التفكير المتيقظ، حيث يتأمن الإختبار من خلال تصور الهدف المنشود. كما تكون الغائية الكامنة، يكشف عنها التحليل النفسي، حيث تبدو التداعيات المتروكة على سجيتها. لماذا يتحدث فرويد عن تصور-هدف وليس عن هدف وغائية فقط؟ يُطرح السؤال خصوصا بصدد الغائية اللاواعية. ويمكن الإجابة بالقول بأن التصورات موضع البحث ليس شيئاً آخر سوى الهواماتاللاواعية. يجد هذا التأويل تبريره بالرجوع إلى نماذج الأولى التي وضعها فرويد عن نشاط الفكر: فهو مع الاستكشاف المميز للعمليات الثانوية على حد سواء، ليس ممكناً إلا بسبب حفاظ الهدف أو التصور-الهدف على توظيفه و ممارسته لجدب يجعل كل السبل التي تقترب منه أكثر نفاذ أى وأفضل (تمهيداً). هذا الهدف هو (تصور الرغبة) الذي يصدر عن تجربة الإشباع.

ونعتقد أننا نظل من خلال ترجمتنا لمصطلح (Zielvorstellung) بتعبير (تصور-هدف) وليس بتعبير (تصور الهدف)، أكثر أمانة لفكر فرويد: إذ لا تحيلنا التصورات موضع البحث

هنا بشكل مقصود فعلياً إلى أهداف بقدر ماهي نفسها عناصر مثيرة قادر على تنظيم وتوجيه مسار التداعيات. و يتوافق المعادل الإنجليزي المقترح و هوPurposiveidea(=فكرة هادفة)مع التأويل الذي نقول به(لابالانش وبونتاليس،ترجمة مصطفى حجازي، 2002: 183-184).

***ممثل-تصوري:(Représentant-Représentation)**

"إنه تصور أو طائفة من التصورات التي تتثبت عليها النزوة خلال تاريخ الشخص، و تدوّن في النفس بواسطتها" (لابالانش وبونتاليس، ترجمة مصطفى حجازي،2002: 489).

هنا الممثل التصوري هو مرادف لتصور الموضوع المدرك، يوظف، يستدخل ليعاد توظيفه مرّة ثانية كأحد ممثلي النزوة.

أ. قرين (A. Green) لا يفرق بين الممثل التصوري وتصور الموضوع: " الممثل التصوري... يعرف من خلال علاقته بالبقايا المدركة وهو تصور أشياء وموضوع... الممثل التصوري يظهر أيضاً على نحو آخر: وهو تصورات الكلمات.

*** ممثل النزوة: (Représentation de la pulsion)**

يستعمل فرويد هذا المصطلح للدلالة على العناصر أو العمليات التي تتفصح النزوة من خلالها نفسيا. يكون هذا المصطلح أحياناً مرادفاً للممثل التصوري كما يكون أحياناً أخرى أكثر اتساعاً كي يشمل العاطفة أيضاً (لابالانش وبونتاليس،ترجمة مصطفى حجازي،2002: 491).

في نظريته حول الكبت فرويد أعطى لهذا المفهوم نفس معنى الممثل التصوري، فالأمر يتعلق بمنع النزوات من الظهور في الشعور عن طريق دفع ممثليها إلى اللاشعور بواسطة الكبت، من جهة أخرى نعلم أن: التصور هو الذي يتعامل عادة مع الكبت بينما تبقى العاطفة في الواجهة لأنها ليست معنية به، من هذا المنظور الممثل الوحيد للنزوة الذي يعنيه الكبت هو الممثل التصوري. وبعد الكبت يجد الممثل الثاني (العاطفة) مكانه بالنسبة لمصير النزوات فبعد كبت التصور، العاطفة يمكنها أن تأخذ عدّة طرق:

يمكنها أن تثبت على تصور آخر يتوافق أكثر مع مبدأ الواقع، كما يمكنها أن تتحول إلى مجموعة من الأحاسيس تكمن في مظاهر القلق، أو أيضا يمكنها أن تقمع إلى أن تجد طريقة تخرج بها.

بهذه الطريقة نرى أن العاطفة لا تأخذ مكانها كأحد ممثلي النزوة إلا بعد حدوث الكبت في نضام ما قبل الشعور-شعور، هذا ما قاله لابلانشوبونتاليس، عندما بينا أن العاطفة ليست إلا بدائية من حيث كونها لم يتح لها مواصلة تطورها "إذا يمكن الجزم بأنه على مستوى ما قبلالشعور-شعور للأنا تكون النزوة ممثلة من قبل العاطفة(لابالانش وبونتاليس،ترجمة مصطفى حجازي، 2002: 491).

***ممثل نفسي:(Représentant psychique)**

يستعمل فرويد هذا المصطلح، في إطار نظريته عن النزوة، للدلالة على التعبير النفسي عن الإثارات ذات المنشأ الجسدي الداخلي(لابالانش وبونتاليس،ترجمة مصطفى حجازي، 2002: 491).

لقد بينا أن النزوة مصدرها الجسد والجسد هو الذي يطالب بتحقيق الرغبة، فيجب على هذا الجسد أن يجد مفسرا أو ممثلا يوصل طلباته إلى النفس. إن علامة الإثارة الجسدية في النفس هي ما يسمى بالممثل النفسي.

ويعرفه أ. قرين بأنه نتاج عملية تحول الشيء إلى نفسي فهو ممثل مفوض، ذو طبيعة غير تماثلية. فهو ليس بممثل بالمعنى النفسي للكلمة، فهو يتضمن الممثل التصوري الذيسيكون في المستقبل (التصور) وكمية العاطفة، يرى على أنه مزيج لا يتجزأ إلا تحت تأثير الكبت

(Green, 1973: 230).

4- نشأة التصورات:

حسب النظرية التحليلية، الطفل يولد وهو لا يملك تصورات فرويد يفترض أن في بداية الحياة، الطفل لا يفرق بين الإثارات الآتية من الخارج وبين التي تأتي من الداخل، وحالة العجز التي يكون فيها تجعله في تبعية تامة للرّعاية الأمومية التي يكون معها في علاقة اتحادية (LEBOVICI, 1983: 19).

هذا التصور ينشأمن خلال العلاقة الأولية التي يربطها الطفل مع المحيط الذي يعيش فيه.

في الموقعية الثانية يرى فرويد أن التصور ينشأ نتيجة انفصال الأنا عن الهو، هذا ما يعرف عند التحليليين بـــــ الفردنة(Individuation) وظهور العلاقة الموضوعية. إذا انطلاقا من هذه الفكرة و لفهم نشأة التصورات يجب علينا العودة إلى أعمال المؤلفين الذين اهتموا بظهور الأنا و تطور الجهاز النفسي (LEBOVICI, 1983: 20).

مراحل تشكل التصورات:

يخضع هذا النموذج لقاعدة تدريجية كما هو الحال بالنسبة لـــ أ. قرين (A. Green) يمكن أن يتعلق الأمر بمجموعة عمليات تحويلية تبدأ من الجسد المحض وصولا إلى النفس المحض، فالمثال الأخير لعملية التحويل من الجسد إلى النفس يتمثل في تكوين تصورات الكلمات (Green,1973: 230).

هذا النموذج مكون من ثلاث مراحل، تبدأ في الجسم وتنتهي في النفس.

أ)المرحلة الأولى: على مستوى الجسد:

الإنسان يولد ككائن حي مزود ببعض المنعكسات البدائية، قدومه إلى هذا العالم هو أول ظهور لبنية فزيولوجية أعدت العالم الآخر، داخل الرحم، عن طريق ما يعرف بتكوين الجنين، فنحن إذن أمام بنية تتكفل بوظائفها من الصرخة الأولى "مؤشر البداية".

يميز فرويد بين نوعين من الإثارات حسب مصدرها: إثارات خارج الجسم يمكن للإنسان أن يتجنبها عن طريق عمل العضلات. إثارة مصدرها داخل الجسم والتي لا يمكننا تجنبها بواسطة عمل العضلات، هذا النوع من الإثارات يعكس متطلبات الحاجة لبنية البيولوجية، الحفاظ على التوازن. لهذا السبب تقول ماهلر(Mahler) إن كل عجز وتخلف على هذا المستوى ينتج عنه فقدان التوازن الفزيولوجي فهذا النوع من الإثارات لا يمكن تجنبه إلا بواسطة التفريغ وإشباع الحاجات.

في البداية الحياة هذان النوعان من الإثارات يعملان معا بالتوازي ويساهمان في ظهور الحياة النفسية، فالطفل يلجأ إلى منعكساته البدائية لتجنب الإثارات الآتية من الخارج كالوخز مثلا، في البداية هو لا يفرق بين ما يأتيه من الخارج وما يأتيه من الداخل، لذلك نجده يستجيب بنفس الطريقة عندما يتعلق الأمر بإثارة داخلية "الشعور بالجوع".

هنا يجذر بنا ذكر ملاحظة هامة: يتكلم فرويد عن وجود إثارة داخلية أي الحاجة إلى الإشباع رغبة فزيولوجية التي حسبه تكون مسيطرة من قبل نزوة الحفاظ على الذات (Perron, 1997).

فهي تتكلم عن ممثل تفريغ النزوة حتى لا يختلط الأمر مع النزوة التي تتكون من العاطفة و التصور، و هو لم يبلغ مرحلة التصور بعد.

فيستجيب الطفل عن طريق المنعكسات التي تبقى غير فعالة.

ترك الأشياء على هذه الصورة يعني الموت بالنسبة للطفل حيث أن "العامل المؤثر لا يحمى بالمنعكسات، بل بالعكس فهو يميل إلى الزيادة فالتنبهات التي تظهر جراء التقلصات العضلية، حركات الجسد، الأصوات الناجمة عن الرضيع نفسه تشكل مصدرا متكاملا من المثيرات التي تزيد من فعالية المثير الخارجي أو الداخلي الأصلي. يضاف إلى ذلك الإضطرابات الحركية التي تزيد من فقدان التوازن من خلال النشاط الأيضي الذي تسببه (GIBELLO, 2003: 41).

حتى يتمكن الطفل من العيش وتجاوز هذا العجز يمكن أن يكون هناك تدخل ملائم من طرف المحيط الذي يعيش فيه قصد إشباع حاجته.

كل شيء إذن يبدأ ببعض المنعكسات البدائية، هذه الأخيرة وصفها باولبي (Bowlby) وكأنها مقدّمة الحياة ، أما ب. جيبيلو (B. Gibello) فقد وصفها استنادا إلى فرويد، وكأنها نوع من التوظيف، أدنى مستوى من التوظيف البدائي (يعني نشوء تصور الشيء) والثانوي (وجود تصور الكلمات و تصور الشيء) في عملية انعكاسية (processus réflexe).

في هذه العملية الانعكاسية فرويد لم يوضح نوعية المواد المستعملة مؤكد أنها ليست تصورات لأنها لم تظهر بعد في هذه المرحلة.

فرويد يقول أنها عبارة عن آثار ذكروية ناتجة عن أول تجربة لإشباع الحاجة. إذا درسنا عن قرب مسألة الآثار الذكروية،نقول بالعودة إلى ب. جيبيلو(B. GIBELLO) إنها تتكون من "مجموعة مستقبلات الإدراكات كلاسيكية خارجية، خاصة وداخلية (الناحية الفزيولوجية) تسجل أثناء التجربة، بتثبيت الإدراك الحسي للمحيط، الرّائحة، الأصوات، رؤية الأم، ذوق الحليب، الضغط الممارس على جسد الطفل وهو في أحظان الأم(نصيب الخارج...) ضف

إلى ذلك مستوى اليقظة، الأثر الناجم عن استثارة المناطق الشبقية ولّدة الراحة الناتجة عنها، التي تعتبر أيضا كلاسيكية"نصيب النفسية" (GIBELLO, 2003: 42).

ب) المرحلة الثانية: ما بين الجسد و النفس

يمكن أن نقول أن هذا الرضيع محميا في غالب الأحيان من طرف أمه التي تعتبر بمثابة الشخص المغيث. هذه الأم "المجنونة" يقول د. و. وينيكوت (D. W. Winniccott) تكون في وضعية أولية اتجاه رضيعها، تبدأ مع انتهاء فترة الحمل. هذا الاهتمام الزائد يدوم أسابيع بعد الولادة، لذا لا يستطيع الطفل فهم أن أمر إشباع حاجاته لا يصدر منه، حيث أن الأم تعطيه الثدي في الوقت الملائم، أي في الوقت الذي يطلبه الطفل، فهي توهمه بأنه هو الذي،أحضر هذا الثدي الذي يطعمه، هذه التجربة يجب المرور عليها حتى تصبح الذات، ذات حقيقية و ليست ذات مزيفة. هذه الوضعية تجعل الطفل في توهم السلطة الكلية و القدرة التامة (La toute puissance) يتوافق و مفهوم "النرجسية الأولى" (Narcissisme primaire) لفرويد و المرحلة الإجترارية العادية (Phase autistique normale) لـــ م. ماهلر (M. Mahler) الإشباع الذي كان يحصل في البادئ بصورة منظمة يصبح شيئا فشيئا غير منظم بسبب شفاء الأم و عودتها إلى حياتها العادية، عندها تصبح قادرة على الغياب، أو ترك طفلها في حالة استثارة وهياج قبل أن تقدم له الثدي فتصبح حسب ونيكوت "جيدة كفاية" (Suffisamment bonne).

الوقت بين طلب الإشباع و حصول الاستجابة هو وقت الغياب و هو ضروري حتى يتمكن الرضيع من استحضار الثدي عن طريق الآثار الذكروية التي تعمل وفق العملية الانعكاسية و توهم الحضور الفعلي له.هذا التوهم الذي يتبعه الطفل بتحريك شفاهه أو مص أصبعه يسميه فرويد التحقق الهلوسي للرغبة (La réalisation hallucinatoire d’un désir)الذي يعتبر كمرادف لهوية الإدراك (Winniccott, 1971).

سنحاول الآن أن نرى كيف تحدث الأمور بالنسبة لفرويد عنصر مهم في تجربة الإشباع هذه، ألا وهو إدراك معين (الثدي في مثالنا السابق) للأثر الذكروي يبقى مرتبط فيما بعد بالأثر الذكروي للإثارة الناجمة عن الحاجة، كنتيجة لهذا الارتباط في المرات الآتية حيث تظهر الحاجة، يظهر معها مباشرة تحريضات نفسية تسعى إلى إعادة توظيف الصور الذكروية للإدراك و إعادة استحضار الإدراك ذاته، أي استحضار حالة الإشباع الأصلية. هذا

التحريض هو الذي نسميه رغبة استحضار الإدراك و ما نسميه تحقيق الرّغبة (GREEN, 1973: 232).

هكذا نرى أن الوقت المستغرق بين الحاجة و إشباعها الناجم عن غياب الأم، هو وقت ضروري جدا يسميه ونيكوت بـــ المرحلة الانتقالية (Phase transitionnelle) في هذا المعنى يقول فرويد-الحضور ينشأ من الغياب- لأن الموضوع الأول المتعلق بالتجربة الأولى للإشباع يفقد جراء بناء تصور له فيصبح موضوعا هواميا يولد الرغبة و اللذة المطلقة (BRUSSET, 1982: 33).

وكذا بالنسبة لـــ و. بيون (W. Bion) " فالفكر هو نتيجة لقاء بين حالة التحضير للمفهوم و حالة الحرمان"(SMITH-KITSIKIS, 1991: 247).

ج) المرحلة الثالثة: على مستوى النفس

في كل مرة يحتاج الطفل إلى إشباع الحاجة، يلجأ إلى التحقيق الهلوسي للرغبة هذا التحقيق الهلوسي ينقطع بمجرد حضور الأم و الظهور الفعلي للثدي.

فهنا يتدخل عاملان:

- الإشباع الهلوسي لا يحل محل الإشباع الفعلى للرغبة، فالضغط يمارس طالما لم تشبع الحاجة البيولوجية، و بالتالي الإحساس بالحاجة يبقى قائما.

- تدخل الوسط الخارجي يجلب الإشباع و التفريغ النزوي.

إثر حدوث التكرار، الطفل يحس بالفرق بين الإشباع الهلوسي الذي ينتمي إلى الواقع النفسي و الإشباع الفعلي الذي يأتي من العالم الخارجي. هذا الفرق بين تجربة الحاجة (الهلوسية) و تجربة الإشباع(الفعلي) هو الذي يدفع الطفل إلى الحد من البحث عن الإشباع الهلوسي "وبدأ عمل الكبت يسمح بعمل التفكير" (SMITH-KITSIKIS, 1991: 247).

آخر ظهور الغلاف النفسي الذي يفصل بين العالم الدّاخلي و العالم الخارجي يعتبر مؤشرا لوجود أولى التصورات التي تنشأ في جو يتميز بـ "إشباع –إحباط"، فتعوض الاستجابة عن طريق التفريغ الجسدي الانعكاسي الذي ليس لهمعنى بتدخل إرصان نفسي يمثل موضوع الإشباع فيكون أكثر فعالية خاصة و أنها تستهلك أقل بكثير كميات الطاقة.

نتكلم هنا عن "تصور الكلمات" التي تختلف عن "الهلوسة" في كونها لا تجزم بوجود الموضوع في الواقع. وتختلف عن "الإدراك" في كونها تجزم بعدم وجود الموضوع في الواقع، هذه الأخيرة توافق الفكر من حيث أنها مسيرة من قبل العملية الثانوية.

خاتمة:

انطلاقا من هذا المنظور بينا كيف يتم الانتقال من الجسد إلى النفس، وذلك من الحاجة البيولوجية إلى الرّغبة الجنسية أي من النزوة الحفاظ على الذات إلى النزوة الجنسية، و من الهو إلى الأنا (بخاصيته اللاشعور، وما قبل الشعور-شعور). من خلال قفزة تطورية بالاستناد على الرّعاية الأمومية التي تمثل الحلقة الرئيسية في هذه النقلة النوعية أي الانتقال من الجسد المحض إلى النفس.

الهوامش:

مكيري، كريم. (2007-2008). رسالة ماجستير في علم النفس العيادي "أثر التصورات العائلية على الراشدين الذين عايشوا أحداث صدمية في مرحلة المراهقة ".جامعة بوزريعة: الجزائر.

لابلانش، ج و بونتاليس، ج – ب(ترجمة الدكتور حجازي). (2002)."معجم مصطلحات التحليل النفسي"،المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع. بيروت: الطبعة الرابعة.

Bergeret, J. (2012). Psychologie pathologie théorique et clinique. 11e édition.Paris.

Brusset, B. (1982).Le développement libidinale. Que sais**.** Je ?.ED. PUF, Paris.

Doron, R. Parot, F. (2007). Dictionnaire de psychologie. 2éme ED. Quadrige.

Gibello, B. (2003).Les contenants de la pensée et la psychopathologie. In Emergences et troubles de la pensée. Sous la dir. Anzieu. D. ED.Dunod, Paris.

Green, A. (1973).Le discours vivant, la conception psychanalytique de l'affect .ED.PUF, Paris.

Lebovici, S. (1983).Le nourrisson, la mère et la psychanalyse. les interactions précoces, ED le centurion, Paris.

Nicolaides, N. (1984).Les représentations, essai psychanalytique.Dunod, paris.

Perron, R. (1997). Fantasme, action,pensé aux origines de la psychique.ED, Semailles, SARP. Alger.

Schmid-Kitsikis, E. Pernet-Catipovic, M . Pernet- Vionnet, S. (1991).Le fonctionnement mental. ED, Delachaux et Niestel, lausanne.

Winnicott,D. W. (1971). De la pédiatrie à la psychanalyse. ED. Payot, Paris.